مجلة إشكالات في اللغة والأدب | مجلد: 10 عدد: 5 السنة: 2021
ص: 873 - 884 | E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

تحديد عملية التبليغ في القرآن الكريم في ضوء نظرية التواصل الجاكبسونية عند عبد الجليل مرتاض

Determining the Process of Reporting in the Holy Qur'an in Light of Jakobson's Communicative Theory According to Abdeljalil Mortad

أ حبيبــة زغلامي [1] * / أ.د عبد الناصر بوعلي [2]
Habiba Zoghlami [1] Abdenacer Bouali [2]
مخبر تحديث النحو العربي
جامعة أبي بكر بلقايد – تلمسان (الجزائر)
Abi bakr belkaid university of Tlemcen (Algeria)
zogbiba @gmail.com 1 bouali13@live.fr 2

تاريخ الإرسال: 2021/06/28	تاريخ القبول:2021/08/25	تاريخ النشر: 2021/12/25

مُلخّص البحث

يهدف هذا البحث إلى إبراز جهود "عبد الجليل مرتاض" في اهتمامه بالتّواصل اللُّغوي وعناصره، وبإسقاطه على عمليَّة التَّبليغ في القرآن الكريم، في ضَوء الدِّراسات اللِّسانيّة الحديثة، من خلال مؤلفه: "عِلم اللِّسان الحَديث في القرآن" .

وقد تضمن هذا المقال تمهيدا وخاتمة وأربعة عناصر هي:

- أولا: إثبات الباحث أنَّ كل الكائنات تتواصل
- ثانيا: عمليَّة التَّبليغ بين القرآن واللِّسانيات الجاكبسونيَّة.
- ثالثا: تَشريح وظائف التَّواصل اللُّغويَّة السِّت.
- رابعا: الوَظائف اللُّغويَّة في القرآن الكريم.

الكلمات المفتاح : علم اللِّسان، نظرية التَّواصل، عناصر التَّبليغ، الوظائف اللُّغويَّة.

Abstract :

This paper aims to tease out Abdeljalil Mortad's efforts regarding his concern with linguistic communication and its elements and with the way he projected them, in light of modern linguistics,on the process of reporting in the Holy Quran in his book,*Modern Linguistics in the Qur'an.*

* حبيبة زغلامي: zogbiba@gmail.com

The article comprises, in addition to a short introduction and a conclusion, four sections:

1) Showing evidence that all living beings communicate.
2) The process of reporting between the Qur'an and Jakobson's linguistics.
3) Dissecting the six functions of linguistic communication.
4) Linguistic functions in the Holy Qur'an.

Keywords: linguistics; communication theory; reporting elements; linguistic functions

تمهيد:

اللُّغةُ خاصيَّة إنسانيَّة وأهم ميزة ينفرد بها الإنسانُ عن غيره من الكائنات الحيَّة. وهي في أوجز وأبسط تعريفاتها: « أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم»[1] ؛ أي أنَّها –اللُّغة– في حقيقتها رُموز صوتيَّة بحيث تدلُّ هذه الأخيرة على معانٍ، في ظلّ اتِّفاقات اجتماعيَّة مختلفة، ونظام لساني معيَّن، وبذلك استطاع الإنسان وهو يعبِّر بهذه الرُّموز عن حاجاته وأغراضِهِ أن يُغطِّي مجالات خبراته ومعارفه بمجرَّدِ الرَّبط بين الصُّورة السَّمعيَّة signifiant (الدَّال) والصُّورة الذِّهنية signifié (المدلُول) لتحقيق الدَّلالة[2] signification.[3]

فهدف اللُّغة هو الإبلاغ والتَّبليغ، وذلك من خلال عمليَّة التَّواصل اللُّغوي التي تقوم عادة بين: طرفين؛ الأوَّل: المتكلِّم الذي يُرسل الرِّسالة بنقل أفكاره وما يجول بخاطره للثَّاني: المتلقِّي الذي يقوم بعمليَّة تحليل وتَفسير وفَهم للرِّسالَةِ، ومحيط كلامي يضمُّ الأحداث اللّغوية و« كل ذلك يؤثِّر في اللُّغة لذا قالوا إنَّ اللُّغة ظاهرة اجتماعيَّة بينها وبين المجتمع تأثير مُتبادل فوجب أن تدرس و تُبنى أسسها على وفق مُحيطها بين متكلِّمها و سَامِعها، و أن تُراعى الظُّروف الخارجيَّة التي تُحيط بها، فقد وجد الدَّارسون المحدثون أنَّ الكلمة لا معنى لها خارج سياقها الذي وردت فيه وهي ليست شيئًا مُجرَّدا عن الواقع الذي تُوجد فيه بل إنَّ وظيفتها هي التَّفاعل مع هذا الواقع» [4].

ومن هنا ظهر الاهتمام بالتَّواصل اللُّغوي وعناصِره في ضوء الدّراسات اللّغوية الحديثة. وقد كان زعيم هذا الاتجاه عند الغرب **رومان جاكبسون**(Roman Jakobson)؛ وهو عالم لغوي وناقد أدبي روسي ولد سنة 1896م وتوفي عام 1982م، من رواد المدرسة الشَّكليّة الرُّوسيّة، وقد كان أحد علماء اللُّغة في القرن العشرين وذلك لجهوده الرَّائدة في تطوير التَّحليل التركيبي للّغة والشِّعر والفنِّ في مدرسته الوظيفية[5]

أمَّا في الوطن العربي وبالضبط في الجزائر فقد وجدنا الأستاذ الدُّكتور **عَبد الجَلِيل مُرْتَاض** أحد أعمدة اللّغة العربية وآدابها في مؤلفه **"عِلم اللِّسان الحَديث في القُرآن"** قد اهتمّ بالتَّواصل اللُّغوي وبإسقاطه على عملية التَّبليغ في القرآن الكريم في ضوء اللِّسانيات الحديثة .

وقد جاء هذا الكتاب في ثلاثة فصول؛ الأول بعنوان: إشراقات لسانيَّة حديثَة في القرآن، والفصل الثَّاني بعنوان: الكَلام بين القرآن وعلم اللِّسان الحديث، والفصل الثَّالث بعنوان: التَّبليغ القُرآني في ضَوء اللِّسانيات الحديثة.

أوَّلاً: إثباتُ البَاحث أنَّ كل الكائنات تَتَواصل

ففي محور من الفصل الأوَّل لهذا الكتاب يُشير أستاذنا؛ إلى أن عِلم اللِّسان الحديث أثبتَ ما جاء في القرآنِ بأنَّ كلّ الكائناتِ الحيَّةِ تَتواصَل فيما بينها بِلغاتٍ تَخُصُّ كُلَّ فصيلةٍ من فصائلِها، غير أنَّ الفرقَ بين التَّواصل الإنسَاني والتَّواصل عند الكائنات الأخْرى يَكمنُ كَما يقول الباحث في أنَّ التَّبليغ الحَيواني لا يَقبَل القِسمةَ على اثنينِ فلغتُها تفقد ما أَسماه **أندري مارتيني** (Martini.A) التَّمفصُل المزدوج الّذي هو ظاهرة صَوتية ودَلالية بَشريَّة، فَخطابُ النَّملة للنَّمل: ((قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)) [النمل: 18]، لا تقبل التَّحليل إلى أصْغرِ وِحدةٍ دالَّة "مونيمة" ولا إلى وحداتٍ صوتيةٍ تمايزية غَير دالَّة "فونيمة"، بَل هِي الكلُّ في الكلّ. فالتَّواصُل الحيَواني تَواصلٌ لغويٌّ خَارجَ طاقةِ البَحثِ اللِّسانيِّ لتحديده.

كما يشير الباحثُ إلى أنَّ تنوُّع اللُّغَاتِ الحَيوانيَّة والأشياءِ التي لا نفقَهُهَا، كما أخبرنَا القرآن، تنوُّع لا يختلفُ عن تنوُّع لغاتِ الإنسان، لكن لكلٍّ حدودِه و مجالاتِه، و لو قُدِّر لهذه الكائنات أن تَكون لها ثَقافة اجتماعيَّة لما عَجزت عن التَّواصل فيما بينها، لكن قَانون الطَّبيعة و الغاب لا يرحم كما يقول[6].

وفي هذا المجالِ يُفسِّر الخبراءُ أنَّ « عَدم ربط الحيوانات للفونيمات وتركيبِها أُسوةً بالإنسانِ، إنَّما يرجعُ إلى أنَّ حَيوانات مثل الدَّلافين والشيمبانزي تَشعُر بأن بضع عشراتٍ من الأصواتِ تكفيها لتَبليغِها، فما الذي يضطرُّها إلى أفكار ومَفاهيم مُعقدة؟ »[7] .

هنا يرى البَاحِث عبد الجليل مرتاض أنَّ هَذا الحُكمُ يظلُّ ضَبابيًّا إذا لم نَستوضِحْهُ من القرآن الكريم الذي يُخبرُنا أنَّ الله كرَّم بني آدم و فضَّلهم على كثيرٍ مما خَلق[8]. قال تعالى: ((لَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)) [الإسراء: 70]

ومن البحوث والتَّجارب العلميَّة الحديثة التي أجريت على الحيوانات لإثبات عملية التَّواصل اللُّغوي بينهم، ما قام به أحد علماء فسيولوجيا وسيكولوجيا الكلام "ن.أ. جينكين" من خلال دراسة تحليليَّة لصوت النِّظام الإشاري عند أحد أنواع القردة المعروفة باسم الرُّبَّاح، والتزام صارم بما انتهى إليه علم اللُّغة الحديث، ليتوصَّل إلى نتيجة أبهرت المهتمين بدراسة لغة الحيوان؛ حيث أنَّه وباستعمال أجهزة حديثة دقيقة ومضبوطة سجَّل تصرفات النطق الصادرة عن حلق الرباح، وهو يتواصل مع بني جنسه، ثبت لديه أمر عجب، وهو أن العوامل الفونولوجية التي حددها اللِّسانيُّون المحدثون في اثني عشر عاملاً زوجيًا والتي تشترك فيها كل اللغات البشرية، تَصْدُقُ أيضًا على لغة الرُّبَّاح[9].

ثانيًا: عَملية التَّبليغ بين القرآن الكريم واللِّسانيات الجَاكُبسُونيَّة

تحدّث الباحث في محورٍ من الفَصل الثَّاني من الكتاب عن التَّبليغ بين القرآن وعلم اللِّسان الجاكبسوني وقد نبَّه ولَفتَ الأنظارَ في البِداية إلى أنَّ عمليَّة التَّبليغ في القرآن لا تشبه العَمليَّة التَّقليديَّة التي حَدَّدها عالم اللّسانيات رومان جاكبسون (Roman Jakobson) في قوله: « كلُّ عمليَّة تَبليغٍ كلاميٍّ ضروري، كل مُتكلم يُرسل مُرسلة إلى المستقبِل، ولكي تكون هذه المرسلة فِعليَّة، فإنَّها تستدعي قبل أي شيء سِياقاً يُحال عليه (وهو ما نسميه أيضًا، بمصطلح غامض قليلاً، "المرجع")، على أنْ يكونَ السِّياق قَابِلاً للفهمِ من قبل المستقبِل سواء كان كلامًا أم بإمكانه أن يكون كذلك، ثم تتطلبُ المرسلة مواضعة (un code) مشتركة كلياً أو أَقَلَّه جزئياً بين المتكلِّم و المستقبِل(أو بعبارة أخرى بين المُرمِّز (l'encodeur) وملتقط الرموز (décodeur) للمرسلة ، وأخيرا فإن المرسلة تستدعي اتصالاً (un contact)، وقناة فيزيائيَّة، وارتباطاً نفسانياً يجمعُ المتكلِّم بالمستقبِل، ودورُ الاتِّصال هنا يَسمح بإقامة التبليغِ والحِفاظِ عليه»[10] . إذاً فالتَّواصُل اللِّساني حسب رومان جاكبسون يَستند إلى ستّة عناصر أسَاسيَّة لا يمكن أن يُستغنى عنها في التّواصل اللّفظي وهي ممثلة في المخطط التالي[11]:

1- السياق

2- المُرسِل..... 3- الرسالة..... 4- المستقبل

5- قناة التواصل

6- شفرة التواصل

م

أشار الباحث في السّياق ذاته إلى أنَّ جاكبسون لم يقف عند إصلاح المخطّط التّواصلي الديسوسوري فقط، بل أوضح مستفيضًا في تحليله وشرحه أنَّ كل عنصر من عناصر التّبليغ الستّة، تنشأ عنه وظيفة كلامية تختلف عن نظيرتها الست الأخرى، يقول –جاكبسون–: « كلُّ عامل من هذه العوامل الستّة يعطي ميلادًا لوظيفةٍ لسانية مختلفة، وَلْنَقُل على الفور إذا كنَّا هكذا نميِّزُ ستّة أوجه رئيسيَّة في اللغة، فإنَّه سيكون من الصعب العثور على مرسلات يقتصر دورها فقط على أداء وظيفة واحدة، لأن تنوّع المرسلات لا يمكن في احتكار الواحدة منها للوظيفة الأخرى، بل في التباينات التدرّجية فيما بينها، ذلك أن البنية الكلامية لمرسلة تخضع قبل كل شيء إلى الوظيفة المهيمنة (prédominante) »[12].

لقد اجتهد عبد الجليل مرتاض وأسقط هذه الترسيمة الجاكبسونية على عمليَّة التّبليغ في القرآن الكريم حسب الشّكل التالي[13] :

المرسل	←	الله جل جلاله
المرسل إليه	←	محمد ﷺ
السّياق	←	أسباب النزول
الرّسالة	←	القرآن نفسه
القناة أو الاتصال	←	الوحي (جبريل عليه السلام)
المواضعة	←	اللسان العربي

ومن خلال مخطط التّواصل والتّبليغ الذي وضعه جاكبسون يرى البَاحث عبد الجليل مرتاض أنَّه لا يمكن بأيِّ حال من الأحوال أن تقارن المدوَّنة القرآنية بأيِّ مدوَّنة بشريَّة، لسبب لا يختلف فيه متجادلان، وهو أن المدوّنات الكَلاميَّة البشريَّة مدوّنات لا تسير في نَظمِها على نسقٍ واحدٍ، وما فيها من مُرسلاتٍ غير متوازنة ولا مُنسَّقة، في حين أن المدوّنة القرآنيَّة مدوَّنة كلاميَّة إلهيَّة كاملة، ورغم تناولها بأكثر من قراءة، فإن واحدة منها لا تحلُّ حرامًا، ولا تحرِّم حلالاً، ولا تتحوَّل فيها أوامر إلى نَواهي أو نواهٍ إلى أوامرٍ، فنحن نقرأ القرآنَ بأكثرٍ من وجهٍ سمح به الشَّرع، ولكنَّنا في النِّهاية نقرأ الشَّيء نَفسه، وهذا لا يتأتَّى لنا في مُدوّنة بشريَّة شِعريَّة كانت أم حتّى نثريَّة.

ولهذا السَّبب – في رأي الباحث– فإنَّنا لا نملك في وقتِنا الرَّاهن إلاَّ أنْ نَتبنَّى مُخطَّط التَّواصل اللِّساني، على أن نَتعامل مع النَّص القُرآني ككلام إلهيٍّ كامل، لكن بِلسانٍ عربيٍّ مُبين، وإذا كانت الأبواب الأُولى مُستعصيَّة عَلينا، فإنَّ الثَّانية مَفتوحَة أمَام كلّ دارسٍ يفقه كميَّة سَليمة من هذا اللِّسان العَربي الشَريف، لسان سيِّد الأوّلين و الآخرين[14].

ثالثًا: تشريحُ وظائف التَّواصل اللُّغويَّة السِّت :

في المرجع نفسه تحدَّث البَاحث بإسهابٍ و بَسط عن السِّت وظائف التي صرَّح بها جاكبسون والتي تنشأ كل واحدة مِنها عن كلِّ عَامِل مِن عوامِل التَّبليغِ السِّتَّة، لتتسَاوَى عناصر التَّبليغ بِعدد الوظائف، و هي ممثّلة في هذا المخطَّط[15]:

1 – المتكلم	⟵	وظيفة تعبيرية أو انفعالية
2– مستقبِل	⟵	وظيفة ندائية أو طلبية
3– سياق "أو مرجع"	⟵	وظيفة مرجعية
4 – مرسلة	⟵	وظيفة شعرية
5 – اتصال "قناة"	⟵	وظيفة إقامة الاتصال أو التنبيه
6– مُواضَعة "سَنَنٌ"	⟵	وظيفة ما فوق اللُّغة أو التبليغ

وفي هذا السِّياق يرى الباحث أنَّ جاكبسون استفاض في تَشْريح الوظائِف اللُّغويَّة بقوله في هذا المقال من كتابه: "Essais de linguistique générale" أن: « الوَظيفة المسمَّاة " تعبيرية" أو انفعالية المركَّزة تَستهدفُ التَّعبير المباشِر لموقفِه إزاءَ الموضوع الذي يتحدثُ عنه، إنَّه يَنزعُ إلى إعطاءِ الانطباع لانفعالٍ من انفعالاتِه حَقيقة أو تَصنُّعاً.. والنَّاحية الانفعاليَّة الصِّرْف في اللِّسان مشخَّصة بواسطة حُروف النِّداء و الندبة والتَّعجب وصوتُ العاطفة، وهذه تُقْصَى من نُهوج اللُّغة المرجعيَّة، بما يُصاحبُها من صورة صوتيَّة... ودور سانتكسي في الآن ذاته، مع أنَّ صوت نُدبة ونحوه ليس عُنصرا من الجملة، بل يعادل جملة تامّة... وأما الوظيفَة الطَّلبية الموجَّهة صوب المستَقبِل "بكسر الباء" تجد تعبيرها النَّحوي أكثر نَقاوة في أسلوب النِّداء والأمر اللّذين من جهة نظر سانتكسية، ومورفولوجية، وغالباً حتى فونولوجية، يخرجان عن

الفصَائل الاسميَّة و الفعليَّة الأخرى، فالجمل الأمرية تختلف اختلافاً جوهرياً عن الجملِ التَّقريريَّة، فهذه يمكن، وتلك لا يمكن أن تكون خَاضِعة لاختبار الصِّدق»[16].

ويُواصلُ الباحثُ كلامه في تحليل الوظائف اللُّغوية استيحاءً ممّا ورد أيضا لدى جاكبسون؛ أنَّ الوظائف اللُّغوية المختلِفة تُفضَّل أساليب نحويَّة وأسلوبيَّة مختلفَة، فالوَظيفة التَّعبيريّة تَستدعي حُضوراً واسعاً لمصوّتات النّدبة والتّعجب والنِداء، وللكلمات المقلّدة أصوات الأشياء المرادة، والأقسام المألوفة من الكلام... وكذا الأشكال الهُتافية والتعجبية، وأمّا التنغيم، فإنه يؤدِّي دوراً مهمّاً للإفصاح عن تأثّرات، فرح، غضب، مفاجأة، ألم، حماس،... وثمَّة سِمات غير لسانيَّة مثل التَّعبير الإملائي، والحرَكة، وحدَّة البَصر في شخصٍ أو بضاعةٍ أو شيءٍ ما، إلى جَانب التَّغيُّرات الصَّوتية وحجم الصَّوت المصاحب لعملية الكلام، وهما عاملان مُساعدان، إذا صحّ هذا القولُ، للتَّعبير الكَلامي[17].

ويرى الباحث أنَّ كلّ شكلٍ من أشكالِ الاستجوابِ نحو: الأمر والنِّداء، والذي يوجد قسم كبيرٌ منه مُتَوَاضَعاً عليه اجتماعياً هي عبارة عن أداءات خاصَّة بوظيفةِ التَّحريضِ، ثم يَسْرِد الباحث في هذا المجال بمقولة لـ مارينة يافيلو Marina Yaguello – التي تعدُّ حسب رأي الباحث أفضل من قرَّب اللُّغة وساهم في توصيلِها في ضوء الوظائف الجاكبسونية اللِّسانية الفرنسيَّة المعاصرة وأَكَّدَت أن اللُّغة تُستَخدم بلاغاً إلى النَّاس، وليس فقط لنَقلِ وإرسالِ معلومة –[18]. تقول: « هذه الأشكال تُستخدمُ لسَبك العلاقةِ بين المتكلِّم والمخاطِبِ، ومن هنا تتأكّد علاقات خارجية عن الملفوظ، أي علاقات ذَرائِعيَّة، لأن الكَلام شكلٌ من عمل ذي قِيمة شَعائريَّة أو سحريَّة، يقول الرّب في الإنجيل: "لِيَكُن الضَّوْء"، فإن الضِّياء يَكونُ، وإذاً فكلُّ التَّعويذات السِّحرية les abracadabras، "افتح يا سمسم"، الأشكال الدِّينية أو السِّحرية، الصَّلاوات إنَّما تتعلَّق بالوظيفة التَّحريضيَّة، حتى لو توَجَّهت إلى الضمير أنت الخيالي،... والوظيفة التَّحريضيَّة تستعين كذلك بفئة الأفعالِ الخاصَّة جدّاً، و المسمّاةُ المناجزة performatifs، فهذه الأفعَال تَستمد معناهَا خلال الحركة الممارَسَة من قبل المتكلِّم على المخاطِبِ، إنها الحركة الممارسَة، وليست المواضعَة التي تبنيها، لها من خصوصيَّة ما يجعلها مثل الأفعال الأمرية غير خاضعة لحكم صادق، فعندما يقال "أعمِّدك je te baptise" أو "أعلن أنَّكما متَّفقان بروابط الزواج"،... فالكلام يعادِلُ فِعلاً »[19].

وفي هذا الصَّدد يُواصلُ الباحث حديثه عن الوظائف اللُّغوية، فيعتبر أن الوظيفة المرجعية يمكن ظهورها حصرياً في الملفوظات التي يُتَواصَل بها لمجرد المنفعة العامّة بقصد الإعلام، أو التَّحذير، أو التنبيه: "طريق مقطوع"، "منعرج خطير"، "خطر، الموت"، الأولوية لهذه الحافلة"،... أو في الرَّسائل القصيرة

الحديثة حيث كل كلمة تحمل معلومة، وكل النُّصوص العلميَّة والتِّقنية حيث النِّية التَّعبيريَّة أو الانفعاليَّة وحتى الجماليَّة مبعدة، غير أن هذه الوظيفة كثيراً ما تتقاطع بوظائف أخرى، لأن اللُّغة الإنسانيَّة لا تكون كاملة بذاتها في حياد[20] .

وهذا ما أَثبتته مارينا يافيلو "Marina Yaguello" في قولها «وفِعلاً، فإن الوَظائِف التَّعبيرية، والتَّحريضية، والانتباهية ليسن وحدها مختصّة باللُّغة، بل يمكن أن يُعبَّر عنها بتصرّف، إيماءة، وحركة، ومع ذلك يمكن للوظيفة المرجعية أن تقوم بمهمات أنظمة أخرى كما هو الحال بالنسبة لرموز الاتصال الخطيَّة والكتابات الرَّمزية idéo graphiques »[21].

أما فيما يخصُّ الوظيفة الانتباهيَّة أو وظيفة إقامة الاتِّصال يرى الباحث أن مُهمَّتها تنهض في بقاء الاتِّصال وضمانِه بين المتكلِّم والأداء أو الاشتغال الجيّد لقناة التبليغ " مثلا بين المعلِّم و المتعلّم ، وبين المتكلّم والمستمع الغافل، التَّحقق من صِحَّة وجَوْدةِ قنوات التَّبليغ المستخدمَة..."[22].

وفي آخر هذا المحور – الذي تَحدَّث فيه الباحثُ عن وظائف اللُّغة– يُبرِّر الاستفاضَة والبَسطُ في هذا الموضوع إلى أنَّ نِيَّتهُ في هذا العمل أن يرى فيه نجاحا كثيرا باعتبارِه محاولة لحثِّ دارسي القرآن الكريم أن يَدرسوهُ وفق العلومِ الحديثة أو يكتفوا بما تَقدَّمهم من دراسات، غير موجَّهة للخواصِ، ولكن نِيتَها أن نتعامل مع أي متلقٍّ لِيَحكم معنا فيما نُبديه من وجهاتِ نَظر يردّها علينا جملة وتفصيلاً، وخاصَّة بشأنِ مُقارنة النُّسوجِ القرآنيَّة بالنُّسوجِ اللَّفظيَّة البَشريَّة[23].

رابعًا: الوَظائف اللُّغويَّة في القرآنِ

مبدئيا، لا ينكر الباحث في هذا المحور وُرود ما يشبه الوظائف السِّت وغيرها من وظائف – لا نعلم أن لسانياً عربياً أو أجنبياً تقصَّاها كلها– في القرآن الكريم. ويُؤكِّد أنَّه لا يمكن بحال من الأحوال تَشبيه نِتاج ما تَنطوي عليه وظيفة لَفظيَّة تُنْجَز وتُبلَّغ من آدمي كَان من كَان، وفي أيِّ جِنس قَوليٍّ، بما ورد من وظائف بأسَاليب قرآنيَّة، فيقول إذْ من الضلالة المضلَّة، والجهالةِ الجَهلاءِ أن نُفكِّر في مثل هذا، بِدعوى أنَّ القُرآن لسانٌ عربيٌّ مُبين، ولو كان التَّشابه حاصلاً بين الأمرين، لما أعجزَ القرآن العَرب الأُصلاء، وتحدَّاهم مع الإنسِ والجنِّ على أن يأتوا بسورة من مثله أو شيء منه ، يقول الله سبحانه وتعالى: ((وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِين))[البقرة: 23]، أو حتى بعشر سور مفتريَات، وهم أرباب البيان وأركان العربية والنَّاطقين الطبيعيِّين سليقة وجبلَّة[24].

وهكذا يَسترسِلُ الباحثُ كلامَه في التَّفريق بين الوظيفة اللُّغويَّة البشريَّة والوظيفة اللُّغويَّة القرآنيَّة فيقول: شتَّان بين خِطاب تعبيريٍّ وانفعاليٍّ، وندائي أو طلبي، أو شعري، ... تَلْبَسُه بِنيات لُغويَّة إنسانيَّة، وتَتجلَّى به، وخطاباتٍ قرآنية سواء تباينت أم تشابهت أم تناسخت، وفَضلاً عن ذلك، فإن الوظائف اللُّغوية في القرآن ثَابتة في أوامرها، ونواهيها وإعلامها، بل أزيد من ذلك أنَّها ثابتة في تحرِّكها، ومُتحرِّكة في ثُبوتها .

ثم يَضرب الباحث لهذه المفارقة مثالاً من القرآن الكريم:

قول الله تعالى: ((وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى)) [طه: 17] .

وظيفة استجوابية، لكنها ليست كذلك بالنسبة لِلْمُسْتَجْوِبِ فهو عزَّ وجلَّ لا يعْزُب عنه من مثقال ذرة في الأرض ولا في السّماء، قال تعالى: ((وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)) [يونس: 61]، بل لنا نحن على لسان حال موسى عليه السّلام: ((قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى)) [طه: 18] .

لكن وظيفة العَصا سوف تتحوّلُ بإذن ربِّها إلى وظائف أخرى عديدة، فوظيفتها ثابتة بالنسبة لأغراضِها التي ذَكرها موسى، و مهما تعدَّدت مآربها وكثُرت، فستبقى في نهاية أمرها عصاً ككل العِصيِّ العاديَّة، لكنها بالنسبة للخطاب القرآني وظيفة ثابتة سَطحيا، ومُتحركة تحتياً .

و قوله تعالى : ((قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى)) [طه: 19]، وظيفة طلبية أو أمريَّة، لكنها ستتحوّل: ((فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى)) [طه: 20]، فالآية 19 بنية سطحيَّة تفسِّرها البنية التَّحتيَّة في الآية 20، ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ((اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي)) [طه: 31]، وقوله أيضا : ((قَالَ خُذْهَا وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأولَى)) [طه: 21]، حيث الجُملتان: "خُذها"، "ولا تخف" وظيفتان: طلبية "أمرية"، وتحريضيَّة، وهما مفسّرتان بالجملة "سنعيدُها سيرتها الأولَى"[25].

وبعد أن تحدَّث الباحثُ عن الوظائِف القرآنيَّة بين التَّحوُّل والثَّباتِ، في محور آخر يُشير من باب لِسانيٍّ، واجتهادِه الفكريِّ، واقتناعِه المؤكَّد إلى أنَّ القرآن الكريم يشمل وظائف أكثر من الوظائف المعدودة في اللِّسانيات، وأن هذه الوظائف تختلف في مآربها وخِطاباتها وتبايناتها وتَشابهاتها، وأوامرها ونواهيها، وثباتها وتحركها، وشفافيتها اختلافاً جوهرياً في بنيتها عمّا عداها من وظائف لِسانية لدى ناظمين،

وناثرين، وخُطباء، نعترف بأنّ أساليبهم الفنية الرَّائعة، ولا سيما الجاهليَّة، والإسلاميَّة، والأمويَّة، والعباسيَّة، كثيراً ما بهرتنا بهراً، واستوقفتنا استيقافاً، لكن هذه الأساليب درجات، تعلو في مقام، وتنزل قليلاً في مقام آخر، حتى لو صدرت من متكلّم واحد، خلافاً للأساليب القرآنية التي على كثرة تنوّعها وذهابها كل مذهب، فإنها تُحافظ على نسقها الذي لا يشبه إلا بعضه بعضاً [26].

وفي الأخير يؤكد الباحث على أنَّ «الوظائف اللُّغوية في الخِطابات القُرآنيَّة تحتاج دِراستها إلى ألوفٍ من المجلَّدات، وهذا ما ينبغي ألاّ يُهمل في التَّفاسير الجَديدة للقرآن الكريم، فإنَّ أيَّ تفسير أقرب إلى شُروحات لغويَّة وبلاغيَّة لا يزيد كثيرا، بل لا يُعانق أوَّل تفسير قديم، لأنَّ المفسِّرين الأقدمين كانوا أقرب عهداً إلى اللِّسان العربي الذي نزل به القُرآن، وأمَّا ما تضيفه التفاسير الجديدة، فأَوْلى بها ثم أَوْلى أن تركّز على التَّفاسير العلميَّة للكونِ وطبيعتِه واكتشافِه» [27].

ففي قوله هذا، يَدعو الباحث الدَّارسين والمفسِّرين الجُدد للقرآن الكريم إلى الاهتمام بالوظائف اللُّغوية في الخِطابات القرآنية أكثر من اهتمامِهم بالشُّروحَات اللُّغوية والبَّلاغية؛ وذلك لأنَّ المفسِّرين الأوائل أشبعوا هذا الجانب دَرسا وتَطبيقا، فالأولى بالتَّفاسير الجَديدة أن تركّز على التَّفاسير العلميَّة للكونِ وإعجازه.

خاتمة:

في ختام هذا المجهود المتواضع، يمكن أن نُنوِّه بأنَّ النَّظرية التَّواصلية اللُّغويَّة الحديثة، التي صارت تنسب إلى رومان جاكبسون بعناصرها ووظائفها، قد عرفها قديما الدَّرس اللُّغوي في العربية، والفضل يعود في ذلك إلى علماء أصول الفقه والنَّحو والبلاغة الأوائل، فهؤلاء جميعا، تضافرت جهودهم المتعاقبة، في تعريف الخطاب اللُّغوي، وتحديد شروط المخاطَب والمخاطِب، كما بيَّنوا أهميَّة المثلَّث التَّواصلي وعناصر الكلام المعبَّرة فيه.

واقتداءً بعلمائنا الأوائل لما قدَّموه من جهود قيمة في علوم شتَّى، حريٌّ بالباحثين والمؤلفين العرب المعاصرين، السَّائرين على دربهم، أن ينكبُّوا على مثل هذه الدِّراسات اللُّغويَّة الحديثة، وما جدَّ عالميًّا في مجالاتها، من نظريات ومناهج ويستفيدوا ويفيدوا منها، وهذا الذي انطلق منه عبد الجليل مرتاض في مؤلفاته وحثَّ عليه، وما تطرَّقنا إليه نحن في هذا المقال إلاَّ قبسًا من مجهودات لا يمكن إنكارها أضافها الباحث إلى علم اللِّسان الحديث، تتلخص في تعريفه للتَّواصل اللساني وكذا عناصره، وتطبيقها على النَّص القرآني المقدَّس بتحفُّظ وتأنٍّ لاختلافه عن أيِّ نصٍّ بشريٍّ من جهة، ومن جهة أخرى لاختلاف الوظيفة

اللُّغويَّة البشريَّة ذات الخطاب التعبيري الانفعالي الشِّعري عن الوظيفة اللُّغويَّة القرآنيَّة الثَّابتة في تحرّكِها، والمُتحرّكَة في ثُبوتِها، فالقرآن كلام الله المعجز الخالد.

و في الأخير، يمكن أن أوصي بما يأتي:

على طلاب العلم أن يلتفتوا إلى جهود الباحثين العرب المحدثين في مجال اللِّسانيات وعلم الدَّلالة، وقراءتها والإفادة من مباحثهم وانجازاتهم على المستويين التَّنظيري والتَّطبيقي.

وعلى الباحثين والدَّارسين أن يهتمُّوا عند تحليل أي نصٍّ لغوي –لاسيما النَّص القرآني– بعناصر التَّبليغ الست، والوظائف اللُّغوية في الخِطابات القرآنية، إضافة إلى اهتمامِهم بالشُّروحَات اللُّغوية والبَّلاغية، وذلك للوصول إلى معانٍ ودلالات جديدة، وأسرار إعجازيَّة لم يُلتفت لها من قبل.

هوامش :

[1] _ابن جنّي (أبو الفتح عثمان): الخصائص، تحقيق محمد علي النّجار، دار الكتب المصرية (مصر)، (د ط)، (د ت)، 33/1

[2] _الدّلالة في اللّغة: مصدر من الفعل دلّ – أي دلّ يدلّ دلالة – و تنطق بفتح الدّال أو كسرها، والجمع أدلّة وأدلَّاء وجاء في لسان العرب مادة (د ل ل) معناها " دلّه على الشيء يدلّه دلالة فاندلّ: سدّده إليه ... وقد دلّه على الطريق يدلّه دَلالة و دِلالة و الفتح أعلى..." فالدّلالة إذا هي التّسديد والتّوجيه و الإرشاد إلى الشّيء. ينظر: ابن منظور(أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم): لسان العرب، طبعة جديدة محققة، دار صادر للطباعة والنشر، (بيروت– لبنان)، 2000م، 5 /291 ، مادة (د ل ل). أما الدّلالة في الاصطلاح فقد عرّفها الشّريف الجرجاني بقوله: " هي كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر، و الشيء الأول هو الدّال، و الثاني هو المدلول". ينظر: الشّريف الجرجاني علي بن محمد: التّعريفات، مكتبة لبنان، ساحة رياض الصلح، (بيروت– لبنان)، (طبعة جديدة)، 1985 م. ص:109.

أي أنّ الدّلالة هي ما توجب العلم بشيء (المدلول) بسبب العلم بشيء ملازم له وهو (الدّال)؛ ونحو ذلك رؤيتك للدّخان في السّماء من وراء قمّة ، فالدّخان (الدّال) دليل على النار (المدلول)، والدّلالة إيجاب العلم بالنّار بسبب العلم بشيء ملازم له و هو الدّخان. و مثال آخر استماعك لصوت الجرس يدق؛ الدّال = صوت الجرس / المدلول = وجود شخص بالباب / الدّلالة = علمك بالشخص بالباب/ (المدلول) لإدراكك صوت الجرس (الدال). فالدّلالة (اللّغوية) إذا هي تضافر الدّال(اللفظ) بالمدلول (المعنى).

[3] _ خليفة بوجادي: محاضرات في علم الدّلالة مع نصوص وتطبيقات، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، (العلمة– الجزائر)، ط1 ، 2009م، ص:22.

[4] _ أسعد خلف العوادي: سياق الحال في كتاب سيبويه دراسة في النّحو والدّلالة، دار الحامد للنشر والتوزيع (عمان– الأردن)، ط1، 1432هـ / 2011م، ص: 13.

[5] _ موقع ويكيبيديا الموسوعية على الشبكة العنكبوتية : www. ar.wikipedia.org

[6] _ ينظر: عبد الجليل مرتاض: علم اللّسان الحديث في القرآن، دار هومة، الجزائر، دط، 2013 م، ص 25 - 26.

[7] _ عبد الجليل مرتاض: علم اللّسان الحديث في القرآن، ص 26.

[8] _ ينظر:عبد الجليل مرتاض: علم اللّسان الحديث في القرآن، ص 26- 27.

[9] _ ينظر:عبد الجليل مرتاض: علم اللّسان الحديث في القرآن، ص 27.

[10] _ voire : R. Jakobson: Essais de linguistique générale , les éditions de minuit, Paris, 1963, p214-213.

[11] _ voire : R. Jakobson: Essais de linguistique générale générale, p214 .

وينظر: الطاهر بومزبر: التّواصل اللّساني والشعرية مقاربة تحليلية لنظرية رومان جاكبسون، الدار العربية للعلوم ناشرون، (لبنان)، ومنشورات الاختلاف، (الجزائر)، ط1، 1428هـ/ 2008م، ص33-34 .

[12] _ عبد الجليل مرتاض: علم اللّسان الحديث في القرآن، ص 56.

[13] _ ينظر: عبد الجليل مرتاض: علم اللّسان الحديث في القرآن، ص 56-57.

[14] _ عبد الجليل مرتاض: علم اللّسان الحديث في القرآن، ص 59.

[15] _ عبد الجليل مرتاض: علم اللّسان الحديث في القرآن، ص 56-57.

[16] _ voire : R. Jakobson: Essais de linguistique générale générale, p214-2016 .

[17] _ ينظر:عبد الجليل مرتاض: علم اللّسان الحديث في القرآن، ص66.

[18] _ ينظر:عبد الجليل مرتاض: علم اللّسان الحديث في القرآن، ص64.

[19] _ Marina Yaguello , Pour comprendre la linguistique. Seuil ,1987,p: 24-25.

[20] _ ينظر:عبد الجليل مرتاض: علم اللّسان الحديث في القرآن، ص67.

[21] _ Marina Yaguello , Pour comprendre la linguistique, Seuil,1987,p28.

[22] _ عبد الجليل مرتاض: علم اللّسان الحديث في القرآن، ص 68.

[23] _ المرجع نفسه، ص68.

[24] _ ينظر: المرجع نفسه ، ص68-69.

[25] _ ينظر: المرجع نفسه ، ص69-70.

[26] _ ينظر: المرجع نفسه ، ص70-71.

[27] _ المرجع نفسه ، ص70.